المحاضرة السابعة: الحضارة الفارسية

مقدمة:

على الرغم مما تشير إليه الآثار والمدونات التاريخية من وجود حضارة متطورة إلى حد كبير في بلاد فارس، فإن المؤرخين لم يذكروا لنا سوى النزر القليل من تلك المآثر الحضارية والثقافية، ولعل السبب في ذلك راجع إلى أن فارس لم تجد من يسجل تاريخها الخاص، ولم يظهر من أبنائها مؤرخ كبير من أمثال "هيرودتس"، فمعظم المعلومات عن تاريخ تلك البلاد كتبها يونانيون ورومانيون وسريان ومسيحيون أو من أرمن وعرب ومسلمون، ولما كانت علاقة بلاد فارس بتلك الشعوب عبر فتراتها التاريخية المختلفة متسمة بالتوتر والعداء، فإن أغلب المدونات التاريخية قد سلطت اهتمامها بالدرجة الأساس على ذكر أخبار الحروب والتقلبات السياسية وما يجري في مجالس القادة العسكريين والحكام، أما ما يتعلق بالجانب الثقافي والحضاري والاجتماعي ومظاهر التحضر السائدة فيه فإنها كانت خارج دائرة الضوء.

وعلى الرغم مما سبق، فإن الأمر الذي لا سبيل إلى رده، أن الفرس أسسوا أكبر إمبراطورية ألا وهي الإمبراطورية الأخمينية التي استمر حكمها من قرنين من الزمن (550- 331ق.م)، وقد ضمت هذه الإمبراطورية مناطق الشرق القديم وآسيا الصغرى وجزءا من العالم اليوناني، وأقواما وشعوبا متحضرة على قدر عال من الثقافة، مثل بلاد بابل وآشور ومصر والمدن الإغريقية وبلاد الشام، وهي مراكز حضارية ذات مآثر عريقة في مضمار المدنية والعمران، فاستفاد الفرس منها في بناء إمبراطوريتهم وتنشئة ثقافتهم، كما ضمت هذه الإمبراطورية تحت لوائها أقواما بعضها متأخر في مضمار الحضارة، وبعضها لا يزال في طور البربرية فتمازجت الثقافات القديمة، وهكذا يتبين أن الحضارة الأخمينية هي تلخيص لحضارات الشرق القديم وتوفيق بينها.

1- تسمية بلاد فارس وتطورها السياسي:

1-1. تسمية بلاد فارس:

على الرغم من أن تعبيري "فارس" و"إيران" يستعملان للدلالة على منطقة جغرافية واحدة، إلا أن التعبيرين غير مترادفين تماما، وتسمية إيران هي أقدم تسمية لبلاد فارس التي يعود تاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وهي مشتقة من قبائل "آييري" الهند أروبية التي نزحت إلى الهضبة الإيرانية في حدود 1500ق.م، وأطلقت على البلاد التي استقرت فيها اسم "أييرين" أي بلاد الآريين، والثابت تاريخيا أن اسم إيران استعمل كمفهوم سياسي رسمي للدولة في العهد الساساني في القرن الثالث للميلاد.

وأما تعبير "فارس" فأول من استعمله كاسم عام يطلق على البلاد كلها هم اليونانيون، وأخذوا هذا الاسم من إقليم "برسا"، ثم حرف هذا الاسم ليصبح عندهم "برسيس" أي بلاد فارس، ثم حرفه العرب إلى "فارس"، فـ"فارس" ليس سوى أحد أقاليم إيران وإطلاق تسميته على كل إيران هو من قبيل إطلاق اسم الجزء على الكل.

وأواسط آسيا هو الموطن الأصلي للأقوام الآرية التي هجرت إلى الهضبة الإيرانية، وأهم ثلاث قبائل آرية إيرانية سكنت الهضبة الإيرانية هي الميديون والفرس والبارثيون، فأما الميديون فاستقروا في القسم الشمالي والشمالي الغربي من إيران، بينما سكن الفرس في الولايات الجنوبية الغربية التي أصبحت تعرف باسمهم، في حين استقر البارثيون في شرق إيران.

1-2. التطور السياسي:

1-2-1. الميديون:

كان للقبائل التي أسست دول على أرض إيران دور كبير في تغيير مجريات الأحداث في الشرق الأدنى كله، ومن أهم تلك الدول الدولة التي أقامها الميديون في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، وقد قويت شوكتهم في عهد ملكهم "كي أخسار" إذ تمكن من مهاجمة الأشوريين وتخريب عاصمتهم "نينوى" سنة 612 ق.م ووسع نطاق مملكته نحو آسيا الصغرى. وفيما يتعلق بالثقافة والحضارة الميدية، فلم يكن لها دور فعال في تطوير الحضارة الإيرانية لأن عمرها كان قصير الأجل، لكنها على الرغم من ذلك فقد مهدت السبيل للحضارة الفارسية الأخمينية.

1-2-2. الأخمينيون:

انتقلت السيادة على الهضبة الإيرانية إلى طائفة أخرى كانت وثيقة الصلة بالميديين سمي رؤسائها بالأخمينيين، واستقرت في الجزء الجنوبي الغربي من بلاد إيران الذي عرف باسم "أنشان" أو "فارس"، وما لبث أن أصبح ذلك الإقليم مركزا للإمبراطورية التي أسسها "كورش الثاني" (559- 530ق.م)، فبعدما تخلص "كورش الثاني" من التبعية الميدية، عمل على توسيع كيان ذلك الإقليم حيث أصبح اسم فارس يطلق على كل بلاد إيران الحالية، كما تمكن من توسيع ذلك الكيان إلى خارج حدود إيران مكونا بذلك أكبر إمبراطورية في العالم القديم، حيث غزا آسيا الصغرى وسيطر على أغنى ممالكها وهي مملكة "ليديا"، وضم المستعمرات اليونانية على ساحل البحر المتوسط، كما تمكن من السيطرة على الأجزاء الشرقية من بلاد إيران وهي "جرجان" و"خراسان"، ثم وجه حملته نحو بابل وتمكن من الاستيلاء عليها سنة 539ق.م.

خلف "كورش الثاني" في الحكم ابنه "قمبيز" (530- 521ق.م) وينسب إليه الاستيلاء على مصر، والسير نهج أبيه وسياسته في مبدأ الاعتدال فاحترم الآلهة المصرية، وانتهج خليفته في الحكم "دارا الأول" (521- 486ق.م) سياسة أسلافه في احترام عقائد الشعوب الخاضعة لإمبراطوريته والسماح لهم بالمحافظة على كياناتهم الثقافية والنظم الخاصة بهم.

كانت حياة بلاد فارس في العصر الأخميني حياة سياسية وحربية أكثر منها اقتصادية، عماد ثروتها القوة لا الصناعة، فلم يكن يوجد في تلك الدولة قانون غير إرادة الملك وقوة الجيش، ولم تكن فيها حقوق مقدسة تستطيع الوقوف أمام هاتين القوتين.

1-2-3. عصر الإسكندر المقدوني:

بدأت نهاية قصة الدولة الأخمينية في عهد الملك "دارا الثالث" (336- 331ق.م) على يد الإسكندر المقدوني، حيث كانت فتوحاته في الشرق ذات تأثير بعيد المدى إذ إنها وضعت حدا للمجد الشرقي القديم وحولته إلى الغرب. كما ساهمت هذه الفتوحات في تهيئة جميع الظروف لامتزاج شعوب العالم القديم وتناقل أفكارها ومعطياتها وعناصر حياتها المادية، وكان من نتائج ذلك الامتزاج التقاء الحضارة الإغريقية بالحضارة الشرقية لينتج عنها ما اصطلح عليه الحضارة الهلنستية.

1-2-4 الفرثيون:

عندما توفي الاسكندر سنة 323ق.م، قسمت تركته بين قواده فكانت أيران من نصيب قائدة "سلوقس الأول" مؤسس الدولة السلوقية، وبعد أن ضعفت سيطرتها على بلاد فارس بعد حكم دان قرابة ثمانين عاما، تمكنت قبيلة "فارني" الآرية التي سكنت إقليم خراسان من أن تؤسس دولة عرفت في التاريخ باسم الفرثيين أو الأرشاكيين نسبة إلى ملكهم أرشاك الأول (250- 247ق.م).

اعتبر الفرثيون أنفسهم ورثة الأخمينيين من الناحية السياسية، فاستبدلوا حضارتهم البدائية بحضارة مستعارة التي هي مزيج من الحضارة الإيرانية واليونانية (الهيلينية)، حيث أدخلت الأساليب اليونانية في الحياة، وانتشرت اللغة اليونانية وصار لها نصيب من التداول.

1-2-5. الساسانيون:

في سنة 224م تمكن حاكم إقليم فارس أردشير بن بابك (224- 241م) من أن يؤسس دولة جديدة بعد قتله لآخر ملوك الفرثيين أرطبان الخامس معلنا بذلك عن قيام الدولة الساسانية، وتميز قيام هذه الدولة في إيران ببروز روح جديدة تتمثل في إعادة خلق الفكر الشرقي مقابل الهيلينية، وكان النظام الإداري ووحدة الأقاليم وتوحيد البلاد تحت لواء فكر ديني رسمي هي الأسس المتينة لهذا البناء الذي استمر قائما إلى نهاية الدولة الساسانية وواصل تأثيره إلى الفترات اللاحقة.

2. اللغة في بلاد فارس:

تكلم سكان إيران القديمة عدة لغات، تلك اللغات ليست إلا لهجات أصلها من مجموعة اللغات الهند أروبية، واللغة الفارسية القديمة هي إحدى لغات جنوب غرب إيران، وكانت لغة البلاط الأخميني، وأحدى اللغات الرسمية للدولة الأخمينية، وأيضا لغة العديد من النقوش الأخمينية، وتكتب من اليسار إلى اليمين، وقد دون الملوك الأخمينيون شروحا لحروبهم وانتصاراتهم بهذه اللغة وبخط مسماري أخميني، محفور على الصخور والآثار المبنية والقبور والألواح الذهبية والفضية والحجرية والطينية، وهذه اللغة وثيقة الارتباط باللغة السنسكريتية التي تعد لغة الكتب الهندية المقدسة.

ولما استولى الملك الأخميني "كورش الثاني" على بابل سنة 539ق.م، كانت اللغة الأرامية واسعة الانتشار في مناطق الشرق منذ القرن الخامس قبل الميلاد، ومما يؤكد معرفة الأخمينيين لتلك اللغة أن الملك كورش الثاني نفسه قد تعامل مع أهل بابل باللغة الأرامية وليس بالفارسية، والأكثر من ذلك أن الملك الأخميني "دارا الأول" اتخذ منها لغة رسمية لمملكته.

وبعد سقوط الدولة الأخمينية على يد الإسكندر المقدوني وتأسيس المستعمرات اليونانية التي أقامها الإسكندر والسلوقيين في أجزاء مختلفة من إيران، انتشرت اللغة اليونانية وأصبحت أحد اللغات الرسمية في البلاد.

وأما اللغة الفارسية القديمة فقد تطورت ثم تفرعت إلى فرعين: الأفستانية والبهلوية (الفارسية الوسطى)، وقد مرت اللغة البهلوية بمرحلتين: المرحلة الأولى هي البهلوية الفرثية أو الإشكانية وهي اللغة الرسمية للدولة الفرثية، وظلت مستعملة مدة خمسة قرون من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعد الميلاد، أما المرحلة الثانية، فهي البهلوية أو الفهلوية الساسانية وهي اللغة الرسمية في العهد الساساني وظلت تستعمل منذ بداية القرن الثالث حتى دخول العرب المسلمين إلى إيران في القرن السابع الميلادي.

ومما يجدر ذكره أن لغة أهل إيران في العهد الساساني لم تكن لغة بهلوية مطلقة، فإلى جانب اللغة الأرامية التي صارت تعرف بالسريانية، بعد انتشار المسيحية وبناء الكنائس، كانت اللغة الصغدية رائجة الاستعمال ومتداولة في أقاليم إيران الشرقية الممتدة من سور الصين حتى سمرقند، وظلت لعدة قرون اللغة الدولية لآسيا الوسطى، كما نجد فضلا عما سبق، اللغة الساجية وهي لغة الهندوسيث وأصلها من مجموع اللغات الإيرانية الشرقية يمثلها اليوم اللغة الأفغانية.

كما نتج عن تفاعل البهلوية الساسانية مع اللغة العربية لغة جديدة عرفت بالفارسية الدرية وهي تمثل الفارسية الحديثة التي تطورت إلى الفارسية المعروفة في الوقت الحاضر. والراجح أن هذا التعدد في اللغات المستعملة في مناطق بلاد فارس في العهد الساساني هو الذي دفع ابن المقفع إلى تقسيم الفارسية إلى خمسة أقسام: الفهلوية والدرية والفارسية والخوزية والسريانية. ولم يكتف ابن المقفع بذلك التقسيم، بل حدد المناطق التي تستعمل فيها كل لغة من تلك اللغات الخمس.

3. أدب الفرس وأخلاقهم:

لقد كان الفرس يتحلون بالصراحة والكرم وحفظ الود وسخاء اليد. يراعون آداب المجالس ويحرصون عليها حرصاً لا يكاد يقل عن حرص الصينيين وكانوا يعدون النظافة أكبر النعم لا تفضلها إلا الحياة نفسها، وأن الأعمال الطيبة إذا صدرت عن أيد قذرة كانت لا قيمة لها،كذلك كانت الشرائع الفارسية صارمة في عقاب خطايا الجسد صرامة الشرائع اليهودية، فكان الاستمناء باليد يعاقب عليه بالجلد، وكان عقاب من يرتكب جريمة الزنا واللواط من الرجال والنساء "أن يقتلوا لأنهم أحق بالقتل من الأفاعي الزاحفة والذئاب العاوية.

ولم يكن القانون يشجع البنات على أن يظللن عذارى ولا العزاب على أن يبقوا بلا زواج، ولكنه كان يبيح التسري وتعدد الزوجات، ذلك بأن المجتمعات الحربية في حاجة ماسة إلى كثرة الأبناء. وفي ذلك تقول الأبستاق (و كتاب الرسول زرادشت الذي يعد الكتاب المقدس لدى أتباع الديانة الزرادشتية): "إن الرجل الذي له زوجة يفضل كثيراً من لا زوجة له، والرجل الذي يعول أسرة يفضل كثيراً من لا أسرة له، والذي له أبناء يفضل من لا أبناء له، والرجل ذو الثراء أفضل كثيراً ممن لا ثروة له"، وتلك كلها معايير للمركز الاجتماعي شائعة بين مختلف الأمم، وكانت الأسرة لديهم أقدس النظم الاجتماعية.

4. التعليم في بلاد فارس:

كان الوليد يبقى في أحضان أمه حتى السنة الخامسة من عمره ثم يحتضنه أبوه حتى السابعة، وفي هذه السنة يدخل المدرسة. وكان التعليم يقصر في الغالب على أبناء الأغنياء، ويتولاه الكهنة عادة. فكان التلاميذ يجتمعون في الهيكل أو في بيت الكاهن؛ وكان من المبادئ المقررة ألا تقوم مدرسة بالقرب من السوق حتى لا يكون ما يسودها من كذب وسباب وغش سبباً في إفساد الصغار، وكانت الكتب الدراسية هي الأبستاق وشروحها، وكانت مواد الدراسة تشمل الدين، والطب أو القانون، أما طريقة الدرس فكانت الحفظ عن ظهر قلب، وتكرار الفقرات الطويلة غيباً. أما أبناء الطبقات غير الموسرة فلم يكونوا يفسدون بتلقي ذلك النوع من التعليم، بل كان تعليمهم مقصوراً على ثلاثة أشياء- ركوب الخيل، والرمي بالقوس، وقول الحق(126). وكان التعليم العالي عند أبناء الأثرياء يمتد إلى السنة العشرين أو الرابعة والعشرين، وكان من يعد إعداداً خاصا لتولي المناصب العامة أو حكم الولايات؛ وكانوا كلهم بلا استثناء يدربون على القتال. وكانت حياة الطلاب في هذه المدارس العليا حياة شاقة. فكان التلاميذ يستيقظون مبكرين، ويدربون على الجري مسافات طويلة، وعلى ركوب الخيل الجامحة وهي تركض بأقصى سرعتها، والسباحة، وصيد الحيوان، ومطاردة اللصوص، وفلاحة الأرض، وغرس الأشجار، والمشي مسافات طويلة في حر الشمس اللافح أو البرد القارس؛ وكانوا يدربون على تحمل جميع تقلبات الجو القاسية، وأن يعيشوا على الطعام الخشن البسيط.

5. العلوم والفنون:

تعلم الفرس ألا يعلموا أبناءهم أي فن من الفنون عدا فن الحياة. فأما الأدب فقد كان في رأيهم ترفاً قل أن يحتاجوا إليه، وأما العلوم فقد كانت سلعاً يستطيعون أن يستوردوها من بابل. نعم إنهم كانوا يستسيغون بعض الاستساغة الشعر والروايات الخيالية، ولكنهم تركوا هذين الفنين للمستأجرين وذوي المنزلة الدنيا منهم، وآثروا متعة الحديث الفكه على لذة السكون والوحدة في البحث والقراءة.

كان الشعر عندهمُ يغنى أكثر مما يقرأ، فلما مات المغنون مات الشعر معهم. وكان الطب في بادئ الأمر من أعمال الكهنة، وكانوا يمارسونه على أساس أن الشيطان خلق 9999 مرضاً يجب أن تعالج بمزيج من السحر ومراعاة قواعد الصحة العامة. وكانوا يعتمدون في علاج المرضى على الرقى أكثر من اعتمادهم على العقاقير، وحجتهم في هذا أن الرقى، إن لم تشف من المرض، لا تقتل المريض، وهو ما لا يستطاع قوله عن العقاقير، إلا أن الطب مع ذلك قد نشأ بين غير رجال الدين حينما زادت ثروة الفرس زيادة مطردة، حتى إذا كان عهد "أرت خشتر الثاني" تكونت في البلاد نقابة للأطباء والجراحين وحدد القانون أجورهم- كما حددها قانون حمورابي- وفقاً لمنزلة المريض الاجتماعية. وقد نص القانون على أن يعالج الكهنة من غير أجر، وكان يطلب إلى الطبيب الناشئ عند الفرس أن يبدأ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب،

6. فن العمارة الفارسية:

في وسع الإنسان أن يقول عن الفن الفارسي ما يستطيع أن يقوله عن الفنون كلها تقريباً، وهو أن عناصره كلها مستعارة من خارج البلاد. فقبر قورش استعير شكله الخارجي من ليديا، وعمده الحجرية الرفيعة منقولة عن مثيلاتها من العمد الآشورية مع شيء من التحسين، وبهو الأعمدة الضخمة والنقوش القليلة البروز تشهد بأنها قد أوحت بها أبهاء مصر ونقوشها، وتيجان الأعمدة التي على صورة الحيوان عدوى تسربت إليهم من نينوى وبابل. أما الذي جعل فن العمارة الفارسي فناً قائماً بذاته مختلفاً عن غيره من فنون العمارة فهو اجتماع هذه العناصر كلها والمواءمة بينها.

مراجع المحاضرة:

- ويل وأريل ديورانت، قصة الحضارة.
- مهدية فيصل صالح الموسوي وميثم عبد الكاظم جواد النوري، مظاهر الحضارة الفارسية.